أسفل جبل التنين

آرنو جايجر

ترجمة: أميرة المصري

في السماء، عاليًا

في السماء، عاليًا، تبينت بعض السحب المارة، وأدركت وقتها أني نجوت. / اكتشفت لاحقًا أن رؤيتي كانت مزدوجة. عظامي كلها كانت تؤلمني. في اليوم التالي كان التهاب الجنبة، تعافيت منه لحسن الحظ. لكن الرؤية في عيني اليمنى ظلت مزدوجة، وفقدت حاسة الشم.

هذه المرة أيضًا اكتفت الحرب بطرحي جانبًا. لأول وهلة شعرت وكأن الدوي يبتلعني ومعه ذلك السهب الذي يبتلع كل شيء بالفعل، وتلك الأنهار التي تبتلع كل شيء بالفعل، عند ذلك المنحنى الفظ في نهر دنيبر. سال الدم أسفل عظمة الترقوة اليمنى في جداول متوهجة، أمعنت النظر، مضخة القلب تعمل بكفاءة، ولكنها لم تعد تدفع الدم في دورته داخل جسمي، بل تدفع به إلى الخارج، بوم، بوم. جريت مرتاعًا إلى المسعف الحربي، والذي وضع ضمادة على الجرح وربطه مؤقتًا. تأكدت، في ذهول من السعادة، أني ما زلت أتنفس. / أصابتني شظية من قذيفة بجرح في خدي الأيمن، يكاد لا يلحظ من الخارج، واستقرت شظية أعلى ساقي اليمنى، مؤلمة جدًا، ومزقت شظية ثالثة شريانًا كبيرًا أسفل الترقوة، القميص والسترة والسروال كانوا غارقين في الدم.

هذا الشعور الذي يتعذر وصفة ولا يضاهيه شعور آخر، شعور النجاة. عندما كنت طفلًا كنت أفكر: لو كبرت. واليوم أفكر: لو نجوت. / هل هناك ما هو أفضل من البقاء على قيد الحياة؟

كان ذلك في المنطقة ذاتها حيث توقفنا قبل عامين، في نفس الوقت تقريبًا. كل شيء كان حاضرًا في ذاكرتي، تذكرت المنطقة على الفور، الطرق، لم يتغير شيء. لكن الطرق لم تتحسن منذ ذلك الحين أيضًا. كنا إلى جوار قرية مدمرة، تحت القصف أغلب الوقت. الليل كان باردًا لدرجة جعلت المياه تتجمد منا في السطل. حتى الخيم كانت تغطيها طبقة من الجليد. / مسيرة الانسحاب كانت شريطًا وحيدًا من النار، تثير رؤيته الرهبة في النفس. ويستدعي التأمل فيه صحوة العقل. احترقت أكوام التبن عن آخرها، احترقت مزارع الكولخوز عن آخرها، لم يصمد حتى الآن سوى البيوت على الأغلب. كان يلزم إزاحة السكان إلى الخلف، لكنهم لم ينجحوا سوى في إخلاء البعض، فقد رفض معظم الناس المغادرة، ما كانوا يخافون حتى من ضرب النار، فقد رفضوا الرحيل تحت أي ظرف.

ومضت الحرب في طريقها، إلى الأمام بالنسبة للبعض، وإلى الخلف بالنسبة للبعض الآخر، لكنها في جميع الأحوال استمرت على أقصى درجات الهياج الدموي غير المعقول.

يوم إصابتي نقلوني في عربة الإسعاف. لو لم تقف شاحنة كبيرة لترافقنا لبقينا عالقين في الوحل أمام القرية مباشرة. وهكذا مضينا في طريقنا حتى محطة الإسعاف الرئيسية، حيث خيطوا جروحي ببعض القطب البدائية. كنت أشاهد عملية الخياطة والدهشة تملؤني من جديد. / الملابس الداخلية التي ارتديتها في أواخر شهر أكتوبر لم تفارق جسمي لمدة شهر تقريبًا، عندما نزعوا القميص عني كان أسود اللون حرفيًا.

رأيت طبيبًا يكسر خمسة أعواد ثقاب في محاولة منه لإشعال سيجارة. ظل واقفًا في مكانه مطرقًا رأسه، إلى أن جاءت ممرضة من الصليب الأحمر وأخذت أعواد الثقاب من يده. سحب الطبيب نفسين حبسهما طويلًا في رئتيه، مغلقًا عينيه، قبل أن يلفظ بعض الكلمات المبعثرة، مترنحًا بين الأسرّة الدامية.

بعد يومين واصلنا السير. كادت العربة أن تنقلب بنا في مرة، حيث انزلقنا في خندق لم نلحظه في البداية. عندما تمكن الآخرون من إخراج العربة أخيرًا، كان الطريق من أمامنا وخلفنا قد انسد لكثافة الثلج المتساقط. استغرقنا ساعات الصباح كلها لنقطع تسعة كيلومترات، فقد كان يجب إزاحة الثلج عن الطريق، وهكذا أصبح الطريق من خلفنا أفضل. لكني كنت أشعر بكل ضلع من ضلوعي. / الشارع الرئيسي كان بشعًا أيضًا، اضطررنا إلى البحث عن مخبأ للاحتماء من الطائرات التي هاجمتنا

بالمدفعية ست مرات. بينما كنت أتحرك مسرعًا انفتح الجرح في فخذي. / عند محطة دولينسكا هاجمتنا قاذفات القنابل ثلاث مرات على مدار ساعة واحدة، شعرت بالراحة فور مغادرتي المحطة.

في دولينسكا أخذوا يرمون بصناديق البونبون والشوكولاتة داخل عربتنا. هذا ما يحدث عندما يحين وقت العودة، تخلى المعسكرات قبل أن تقع في أيدي السوفيت. نحن الجنود لم ينلنا من الحظ سوى البونبون والشوكولاتة، فيما عدا ذلك لا نشهد سوى الأهوال.

بعد تغيير الضمادات استلقيت في قطار إسعاف حربي. توقف القطار كثيرًا في غير محطاته لشدة الزحام. استغرقت الرحلة إلى براج خمسة أيام، ومن براج يومين حتى وصلنا إلى إقليم زار. / من كان ليصدق أن ينقلونا من الشرق إلى أقصى الغرب، لكن هذا دليل آخر على مدى صغر ما يطلقون عليه ألمانيا الكبرى. / لنتجنب دخول الصقيع إلى الجروح استعنا بموقد خنادق في العربة. عادت لي حاسة الشم، وفي هبة الحرارة كان لرائحة الصديد واليود النفاذة أثر المخدر علي، تأرجحت ما بين صفاء الذهن وضبابيته. نوم، نوم، نوم. – الألم؟ علي أن أجز على أسناني كما قال لي المسعف، فالمورفين يستخدم فقط في الحالات الحرجة. وإصابتي ليست حرجة بأي حال من الأحوال. كما أننا نتجه غربًا. وغربًا تكون الآلام محتملة. / بالتأكيد سيعود بعض المصابين ممن كانوا معي في العربة إلى الجبهة قريبًا. استعادوا صحتهم من فرط السعادة في الطريق إلى الغرب. وهذه غلطة طبعًا. / ثم يعاودني شعور بأن كل شيء في رأسي يعج ويئز. وانزلقت مرة أخرى ببطء في حالة من غياب الوعي.

التأوهات، الأنين، رائحة الجروح التي لم تلق عناية كفاية، رائحة الأجسام المتسخة. كل ذلك في خليط مجتمع يمثل لي خلاصة الحرب. حاولت النوم أطول فترة ممكنة. كل من في العربة تقريبًا كان يدخن. من لم يقو على حمل السيجارة بنفسه كان يطلب من جاره المساعدة. شعرت بألم يضغط على رأسي وخطر لي أنه من الرائحة النفاذة والدخان الكثيف. حبست الدخان في رئتي طويلًا كما فعل الطبيب في محطة الإسعاف الرئيسية.

الجميع تقريبًا حاول أن يفضي بحكايته. لعل حكايتنا إذا رويناها بأنفسنا تجد سبيلًا للاستمرار.

نحن الآن في إقليم زار إذًا، لا داعي إلى أن أقول أكثر من ذلك، المنظر هنا لا ساحر ولا خلاب. الطبيعة لا بأس بها، لكن عليك أن تغض بصرك عن سخام مناجم الفحم. المستشفى الحربي الذي أرقد فيه كان ملجأ للأطفال سابقًا، يقال إن صاحب المنجم تبرع به، مدخله مغطى بحصى أبيض لا يتماشى مع منطقة يملؤها السخام. تحيط به حديقة بها أشجار غريبة وشجيرات مبتورة ومجسمات رومانية وعجائب وغرائب أخرى. أما من الداخل فكان المبنى مجهزًا بأساسيات أي مستشفى حربي، الأسرة البيضاء والمراتب المرنة. / بعد وقت طويل على الجبهة بدا لي المستشفى الحربي كقطعة من الجنة. ما أغرب أن أكون راقدًا هنا بكامل عظامي بينما نساء يرتدين مرايل شاهقة البياض يحضرن لي قهوة حقيقية واثنان من شركاء الغرفة يلعبان بورق اللعب ومن الخارج يأتيني صوت أجراس الكنيسة. هذه أول ملاءة بيضاء أراها منذ أكثر من عام. ما أغرب ذلك!

أحب عندما تأخذ الممرضة حقنة ملفوفة في قطن أبيض من العلبة. تقول لي: "استرخ، تخيل أن هذا الألم ليس ألمك." / قبل قليل اقترب مني أحد الأطباء بحماس فاتر قائلًا إنهم سيسرحونه في اليوم التالي. لا أبالي. / ما أجمل أن تلمسني أيادٍ نظيفة من جديد. / في مرة غادرت موقعي في جنوب روسيا بضع ساعات وعدت إلى مطبخ المعسكر، وقتها مررت بنفس ما أمر به الآن في المستشفى الحربي: وقفت فاغر العينين لرؤية الأكواب الزجاجية وزهور الحديقة.

بعد وصولي نحو الساعة التاسعة صباحًا قضيت اليوم كله في ركن بالردهة، متواريًا خلف ستارة بيضاء، كانت البرودة هناك بشعة. لاحقًا جاء طبيب ليفحصني. عندما اقترب المساء خلا أحد الأسرة في عنبر المرضى فنقلوني هناك. في هذه المرحلة كانوا قد أخذوا مني بالفعل عدة عينات من الدم، في اليوم التالي أشعة على الرئة والمزيد من عينات الدم. ثم ليالٍ حظيت فيها بقدر لا بأس به من النوم لأول مرة منذ زمن بعيد. لم يكن الجو باردًا ولا رطبًا، ولا كانت عيدان القش تدخل فمي ولا الذباب في أنفي.

في الثاني من ديسمبر أجريت لي عمليات في الفخذ والترقوة. ساءت حالتي بعد الحقنة، دارت بي الدنيا، رأيت الأسرة تطفو في العنبر مثل مراكب شراعية صغيرة على سطح البحر. كان ينقصني النخيل وحسب. بدأت أسمع أصواتًا وشعرت أني أنفصل عن ذاتي. أخذت أردد اسمي، مرة بعد الأخرى، فكرت أني ما دمت أتذكر اسمي فأنا لم أفقد عقلي بعد: فايت كولبه ... فايت كولبه ... فايت كولبه ... آخر ما رأيته كانت ممرضه تميل فوقي بغطاء رأسها الأبيض. بعدها رحت تمامًا.

الممرضات هنا في المكان منذ أن كان ملجأ أطفال، متقدمات في السن ويرتدين عباءات طويلة. لكني للأسف لم أعد طفلًا. عندما استعرت من جاري في السرير المجاور مرآة صغيرة لأول مرة، لكي أتمكن من حلاقة ذقني في الفراش، أفزعني وجهي المثخن المنهك. / لم أحلق ذقني منذ ثلاثين يومًا تقريبًا، منذ عملية شاكروف تاجانروج فورونيش شيتومير، لا أدري، كان شكلي كرجل عاد من رحلة طويلة داخل غواصة، مزريًا. وكان علي أن أستعير ماكينة للحلاقة. ماكينتي الخاصة تركتها لدى الروس، وقفت هناك كالخارج لتوه من تحت القصف.

كيف يمر علينا الزمن أمر مخيف. أرى على الفور كيف تقدم بي العمر، أراه في وجهي. وحدها الحرب لا تتغير أبدًا. لم تعد هناك مواسم، ولا هجمات صيفية، ولا هدنات شتوية، فقط الحرب، بلا هدنة، بلا تغيير، إلا إذا اعتبرنا عدم توسع الحرب إلى ساحات قتال جديدة وعودتها إلى ساحات القتال القديمة من سبل التغيير. الحرب دائمًا ما تعود.

والداي الحبيبان، سأكتب للفرقة غدًا بأن يبعثوا بأغراضي ومرتب الأشهر الثلاثة المستحقة إلى عنوان البيت. لكني أخشى أن تكون وحدة الإمداد قد وقعت في يد الأعداء، وقد لا يكون هناك أمل أن أرى أغراضي مجددًا. ولذا أرجو منكما أن ترسلا لي على وجه السرعة نقودًا وأظرف ورقية وماكينتي الأخرى للحلاقة وفرشاة ومعجونًا للأسنان. أما الملابس الداخلية فقد استلمتها نظيفة من المستشفى الحربي. / سآخذ إذنًا مرضيًا عن قريب بكل تأكيد، حينها سأحكي لكم كل ما جرى.

أرى هنا بعض الفتيات الصغيرات يأتين ويذهبن، في السادسة عشر، أو السابعة عشر، لا يعقل أنهن أنتهين من الدورة التدريبية، فهن لا يعرفن كيف يقاس النبض حتى.

أحب رائحة النظافة، تذكرني بالمصحة عند هيلده. لكن المصحة لم تكن بهذا الدفء. لسبب ما كان الأطباء يأملون أن تشفي البرودة مرضى الرئة. / كنت أفكر في ذلك إذا شعرت أن العصاري لا تنقضي. لا أعرف إن كان ذلك بسبب الأدوية، لكن لبضعة أيام صرت أرى كل شيء بتركيز شديد. مع الأسف كان رأسي يؤلمني مع كل حركة، وكنت أسمع ضربات قلبي في الأذن اليمنى.

في البداية قالوا إن غشاء طبلة الأذن تضرر بعض الشيء، وينبغي لي فقط أن أترك أذني لحالها. تبين بعدها وجود كسر في الفك العلوي، وقد فقدت الإحساس في بعض المواضع بالخد، وتغير وقع اصطكاك أسناني في الأذن ليصبح أقرب إلى قرع أجوف. كان علي نزع ملابسي بالكامل لفحص الفك، وهذا ضروري جدًا في حالة كسر الفك. في أحيانٍ كثيرة أشعر كأني بين جماعة من المخابيل. لكن لحسن الحظ لم يسود لون الضرس، ويعني هذا أن هناك أمل في أن يكون العصب سليم. أما الخد فكان متورمًا عن آخره، وكان الضغط عليه مؤلمًا. / أخذوا يعرضون الخد المتورم لموجات قصيرة بصفة يومية، من المفترض أن يخفف ذلك من الورم، وربما يساعد حتى في تنشيط عصب الخد المتضرر. كما كانوا يجلسوني يوميًا تحت حمام الشمس الصناعي. مع الأسف لم تتحسن آلام الرأس. / جرح الفخذ كذلك كان يلتئم ببطء وشديد التقيح، كل يوم أصحو لأجد الضمادة لونها أصفر مائل للخضرة ورائحتها كريهة. لم أكن قادرًا على ثني ركبتي كما ينبغي، وقالوا لي إنها ستتحسن سريعًا عندما يلتئم الجرح تمامًا. لكن قبل ذلك كان يلزم فتح الجرح عدة مرات، فاللحم داخل الشق الذي أحدثته الشظايا كان ينمو نموًا عشوائيًا، مكونًا نتوئًا عاريًا من الجلد على الفخذ. وكما شرح لي الطبيب، إذا تُرك الجرح على حاله ستتكون قشرة أشبه ببثرة كبيرة وداكنة. ولذلك كان يجب إزالة اللحم الناتئ كي يموت الزائد منه وتتكون عليه طبقة جلدية. / كان الطبيب يفحص الجرح كل يومين ويفتحه، ثم ينضحه ويرشحه مرة أخرى.

أما الجرح أسفل الترقوة فما كان يؤرقني. ظننت لأول وهلة أنه سيقضي علي، لكنه كان أول ما التئم.

كما أن كل شيء مرتبط بمدى حسن حظك في ظل الظروف. فالقذيفة التي أصابتني بجراح أصابت الراكب بجواري في المقعد الأمامي في مقتل. أسفت على موته، لكني عندما فكرت فيما جرى له وجدت بعض السلوى. فمصائب الآخرين تجعلنا ندرك بوضوح أننا قد نفدنا بأعجوبة.

ذات يوم أحد حصل كل مصاب في المستشفى الحربي على أربع سجائر: الأولى من القائد، والثانية من كايتل، إلى آخره. أعطيتها للآخرين، فلم تكن سجائر القائد وكايتل ذات قيمة في نظري. كما مُنحت شارة المصابين تقديرًا لما أصابني من حظ عثر. أربع سنوات من الحرب والعناء والبلاء، قدت فيها شاحنتي، من طراز سيتروين، من فيينا حتى نهر الفولجا، ومن الفولجا عائدًا إلى نهر دنيبر. كسور لا تحصى في الزنبرك، وعدة كسور في محور العجلات، قطع في عمود الكردان، قطع في ذراع المقود، تعطل متكرر في مولد الإنارة، تجمدت المكابح الجرنية وأنبوب الوقود ومضخة الوقود وفلتر الزيت ومفتاح المحرك، ساعات طويلة في الشتاء تحت العربة، يداي خشنتان طوال الوقت بفعل البرد الوحشي والبنزين. إذا خبطتهما في أي موضع يتشقق الجلد متساقطًا عنهما. كان صمود السيتروين في الحقيقة يمثل صمودي شخصيًا، ولم ألق على ذلك أدنى تقدير قط. والآن أحصل على وسام لأني توقفت في المكان الخاطئ في الوقت الخاطئ، وسام على ثلاث ثوانٍ من سوء الحظ، ولأن روحي لم تطلع. حافظت على أكبر قدر ممكن من الهدوء عند استلامي الوسام، ثم نزعته عندما خلوت لنفسي.

صبي خباز من المدينة، مكلف بأن يأتي لنا بخبز طازج كل يوم، أخبرنا بأن المستشفى كان دار رعاية سابقًا. و بصفته من أهل البلد استرسل في حديثه، وإن كانت خلاصته كما ألمح أن دار الرعاية أخليت قبل بضع سنوات، ونتيجة لذلك أصبح هناك مكان للمستشفى، ولأسرّة الخدمة العسكرية. وهؤلاء الراقدون في سلام أمامنا يرقدون في السموات على الأرجح. كما قال صبي الخباز إنه سمع من صبي خباز آخر يورد الخبز لمشفى آخر، إنهم كانوا يأتون بالمرضى محملين على حافلات، الحافلة تلو الأخرى، ومع ذلك ظلوا يطلبون كمية الخبز ذاتها كل يوم.

لا شيء يضاهي الإقامة في المستشفيات الحربية، نقابل هناك أشخاصًا خدموا في مختلف الأسلحة، حتى وحدات التموين والإمداد. النقيب المجاور لي حكى لي حكايات من وقت إقامته في فارشاور، عن أوضاع ما كنا لنصدقها من قبل قط، وعن إعدامات لمدنيين في الشوارع العامة.

هذا النقيب رموا ذراعه اليمنى كلها في الزبالة، وجهه كان أصفر كالصينيين، ولم يُسمح له بأكل سوى عصيدة السميد. بعدما حكى قصة الإعدامات قال: "قطعت عهدًا على نفسي: عندما يتحسن ذراعي المبتور قليلًا، سأسافر للحج في ألتوتنج. تسافر معي؟ طيب، نسافر سويا، اتفقنا؟" / رفعت حاجبي، علاقتي به كانت جيدة مثل علاقتي بالآخرين، الحديث بيننا قليل، وكانت هذه الطريقة المثلى. لكن أن نحج سويًا إلى ألتوتنج؟ / كرر علي: "طيب، نسافر سويًا." / وأنا أقول في سري: هه، لا طبعًا.

بعدها أصابته قرحة في المعدة. قبل موعد العشاء بقليل شعر بآلام حادة، وفي المساء بدأ يصرخ فجأة، وبعد منتصف الليل فقد الكثير من الدم، كان يخرج من الأمام والخلف ومن فمه. لم تفارق الممرضات سريره، وفي الصباح أصبح لونه رماديًا كالأموات، بعدها أجروا له عملية، ويقال إنهم نقلوا له أربع عشرة زجاجة دم. وفي الأيام التالية كانوا يفحصون عينه اليسرى في مطلع كل صباح ليتبينوا كم من الوقت سيعيش. استمروا في تنظيف جسمه من الإفرازات، لكنه أصبح فيما عدا ذلك حالة ميئوس منها. / قال أحدهم، وكان رأسه ملفوفًا برباط كثيف: "إذا مات أحدهم لن يحترق قلبي عليه، بل سأفرح من أجله، فقد اجتاز الاختبار وحقق الهدف ودخل مملكة المسرات الأبدية. وإذا ذهب إلى الجحيم فهذا ما ينبغي له أيضًا، أن يموت، كي لا يتمادى في الخطايا ويزيد عذابه الأبدي." / استمر حديثه المجنون من تحت رباط رأسه، توقفت عن الاستماع إليه وأخذت أفكر في السنوات الخمس الضائعة، بما فيها سنة الخدمة العسكرية في العام الأخير من فترة السلام—سنوات ازدادت ظلمة وكثافة حتى تكورت على نفسها وتدحرجت بلا توقف. وفكرت أني قضيت ما يكفي من الوقت في الجندية، وأريد أن أعود لبيتي قبل أن أصبح كولر آخر. أردت الابتعاد بأسرع ما يمكن، شعرت فجأة بالخوف من المرضى.

ثم هلت البشائر كلها في يوم واحد: سمحوا لي بالنهوض والذهاب وحدي إلى الحمام للمرة الأولى، وإن كان على عكازين. حتى أنني تمكنت من المرور على غرفة الكتبة وقدمت طلبًا بنقلي إلى مستشفى في بلدتي، وقالوا لي إنهم قد يكتبون لي

خروجًا للرعاية المنزلية إذا كان لدي طبيب في فيينا ليفحص جرح الساق بصفة دورية. / في أثناء وجودي بغرفة الكتبة كانوا قد فرشوا سريري بملاءات نظيفة، جلست عليه وكتبت لأهلي قائلًا إني سآتي قريبًا، ما زلت ضعيفًا ومتعبًا، لكني سعيد بأني غادرت روسيا بعض الوقت، الجميع تقريبًا يجرجر حملًا من هناك.

النقيب في السرير المجاور تحسن مرة أخرى، أصبح قادرًا على الشرب بمفرده والجلوس في السرير معتدلًا بالساعات. ومع ذلك كنت اكتفيت من هذا المستشفى، من إضاعة الوقت في أرجائها، من مزاح الأطباء عندما يتظاهرون بأننا لاعبو جمباز ويقولون إنهم سيساعدوننا لنرجع إلى لعب العقلة مرة أخرى. أصابتني حالة شاذة غريبة أفقدتني الثقة في كل شيء تصاحبه أقاويل مرحة كهذه. / تحصلت على زيّ، وتحصلت على بوط، في حالة جيدة، وإن كان قاسيًا للغاية. كل شيء جديد—وإلى أن يخلع هذا الزي مرة أخرى سيكون قد مر عامان آخران، وقد أصبحت هذه الملابس تكسو معاق ذهنيًا أو جثة في مقبرة جماعية في روسيا. / رفضوا تسريحي من الخدمة مرة أخرى.

قبل أن أغادر بيوم توجهت إلى استراحة الجنود بالبلد حيث أكلت من سندوتشات الجبن حتى شبعت وشربت كأس بيرة. تجولت في البلدة بمصاحبة صرير العكازين لأني كنت أريد شراء بعضًا من التفاح. لكنهم كانوا يبيعونه ببطاقات التموين فقط. دخلت بالصدفة إلى محل وسألت مرة أخرى عن الفاكهة لكن جائني نفس الرد. ثم بينما كنت أعدل من الضمادة أعلى ساقي، وقد انزلقت إلى أسفل، استدركت البائعة قائلة إن لديها كيلو اشترته لنفسها ستعطيه لي. وقفت في ذلك الشارع الجانبي وأكلت مع مصاب آخر من التفاح، وفي تلك الأثناء جائنا فتى بثمرتين أخريين جميلتين. كان أبوه قد رآنا من النافذة وشاهد كيف أعجبنا طعمه، فأرسل لنا بابنه. / وهكذا ظلت لمدينة ليباخ نوينكيرشن هومبرج ميرتسيج ذكرى طيبة في نفسي. / لم أشعر بأي ألم تقريبًا عندما خرجت أول مرة، كان الجرح أعلى الساق مشدودًا بعض الشيء، وما عدا ذلك كان محتملًا، لم يضايقني سوى انزلاق الأربطة. لكني أخيرًا كنت مهيأً للعودة إلى المنزل عن قريب.

تفاجئت بأن موعد سفري تأجل يومين. أعلنوا تشريف مجموعة من علية القوم، وصار المستشفى بين يوم وليلة تحت التفتيش، وبالتالي لم يلق المصابون نفس القدر من الرعاية، وانهمكت الممرضات في التنظيف والترتيب والغسيل، وحتى الكتبة انشغلوا بمهام أخرى وتأخروا في كتابة تقرير خروجي من المستشفى. الجميع كان يمشي على أطراف الأصابع ليبدو كل شيء جميلًا ونظيفًا. يوم الزيارة كان الأكل أفضل من المعتاد. بعدها كان يجب العودة إلى التوفير والاكتفاء بطبخ الشمندر والبطاطس لعدة أيام. لحسن الحظ لم يسر هذا علي، كنت ممتعضًا بما يكفي.

وهكذا غادرت مدينة السخام في زارلاند. أعطوني دواءً قبل رحيلي، توغل في جسمي كله، لم أقو على الحركة إطلاقًا عندما وصل القطار كايزرسْلاوتيرن وسمعت إنذار غارة جوية. سارع القطار بالمغادرة، وأظن أن ذلك كان من حسن الحظ، فمن بعيد رأيت قاذفات القنابل البريطانية وهي تفرغ أحمالها. كما كانت هناك حرائق في غابات المنطقة، سمعت من القطار أصوات القوات الخاصة وهي في طريقها لإطفائها.

دخل القطار فرانكفورت ببطء شديد حتى ظننته لن يصل أبدًا. المحطة الرئيسية ... لا شيء. في حالة من عدم الاتزان أعطيت مخلاتي لولد صغير، وفرحت عندما قادني إلى دار المبيت في مقابل بعض الخبز من مؤنة الطريق. لم أجد هناك مكانًا شاغرًا. أخذت غرفة بسريرين في فندق قريب. ألم حارق في باطن القدمين المنهكتين من قساوة البوط. بعد وجبة خفيفة من السجق والخبز وقهوة سادة جلست منهكًا على إحدى الأرائك يأكلني القلق. لأول مرة منذ أكثر من عام أسمع ضوضاء الشارع وصوت الضحكات والكلام بالألمانية. رحت في النوم حتى أيقظني البرد في السادسة. ثم جلست مرة أخرى في المحطة أنتظر، وحاولت أتخيل الحال عندما أصل البيت. في روسيا لم أجد صعوبة في تخيل لحظة وصولي البيت ... كيف أقطع زقاق بوسينجر مسرعًا ثم أعبر من باب البيت بصريره المسموع صاعدًا على الدرج. والآن لم أعد أظن أن ذلك سيتحقق أبدًا.

أمضيت على الطريق عبر ألمانيا يومًا وليلة شتوية مظلمة. المحطات التي مر بها القطار لم تكن مضاءة، في بعض الأحيان كنت أجد مصباحًا أزرقًا وحيدًا يضيء رصيف ما. كان الجيش في كل مكان تقريبًا، وكثير جدًا من اللاجئين. وفي متاهة الأرصفة المتداخلة ليلًا ما كان أحد يعرف الطريق سوى منظم حركة القطار، اندهشت عندما وصلنا ميونخ؛ تبديل

القطارات. جررت المخلاة إلى إحدى مقصورات القطار المزدحم عن آخره، وغفوت ... غفوت ... لم تخرج كلمة من بين شفتيّ، الدخان وحسب كان يدخل إلى رئتيّ، ترياقًا. / زاد على شعور الإعياء المتزايد إرهاق بدني غير عادي وألم في جميع الأطراف، ساءت حالة قدميّ المنهكتين من جديد، أخذت أتقلب وأتلوى، بينما أنا غارق في أفكاري يثقل جفناي من حين لآخر. وصلنا زالتسبورج أخيرًا في الثانية عشرة ونصف ليلًا. انتظرت مرتعشًا في عتمة الليل، غفوت حتى الخامسة صباحًا، وكان الجو بالخارج باردًا وقاتمًا. تبلدت أعصابي من فرط التعب. ما كنت أترقبه بفارغ لصبر في الأيام والأسابيع الماضية أوشك الآن أن يتحقق. لكني كنت غائبًا عن الوعي وغير قادر على إدراك ما يجري.

وصل القطار فيينا بعدما انتصف الصباح. المحطة من جديد، المحطة الغربية، بدت لي بعد طول غياب وكأنها دار أوبرا. راودتني الذكريات واختفت، ككل شيء. أكملت الطريق مشيًا على العكازين عبر شارع فيلبر متجهًا إلى البيت. لا شيء يهم سوى أني على قيد الحياة.

آخر مرة عشت هنا

آخر مرة عشت هنا في فيينا كانت منذ خمسة عشر شهرًا. في طريق العودة البطيء أخذت أماني العودة إلى المنزل أشكالًا متأثرة بعناء الحرب. تمنيت النوم وحدي في الغرفة ولا يكون البوط إلى جوار السرير، ألا أضطر إلى النوم أسفل شاحنة معطلة في الثلج وتتجمد يداي. تمنيت شرب القهوة من الفنجان الذي أهدته هيلده لي في عيد ميلادي الخامس عشر. وتمنيت فرشاة أسنان جديدة كل أربعة أسابيع. لكن العائد من الحرب يعود لبيت آخر غير الذي تركه، ولذا لم أشعر بالراحة في بيتي بالرغم من تحقق كل هذه الأمنيات.

ماما كان الله أعلم ما بها، لم تكن بخير، كانت تشعر بالبرد، وكانت تشعر أيضًا بسقوط الثلج والأمطار والرياح والضباب. كانت تتولى شغل البيت كله وحدها، لكن بدا لي أن هذا الحمل الكبير كان في صالحها، لأن الشغل لم يترك مجالًا للتفكير. عندما كنت أشكرها على مساعدتها كثيرًا ما كانت تقول: "ليس لي أن أحاسبك على ذلك." / بابا كان يقدم نصائحًا نيرة، كلها أفكار متخلفة كنت أشتاط منها غضبًا. كان يقول إنه هو أيضًا ولد في زمن سيء، بينما حظي أنا أفضل لأني أشهد أيام شبابي على أعتاب مرحلة تاريخية. ما الذي يتمناه الإنسان أكثر من ذلك، أما كيف أستغل هذه الفرصة فذلك متروك لمهارتي.

ساعات قضيتها جالسًا إلى الطاولة بالمطبخ مرت كأنها عقابًا على نجاتي من الموت. حتى فكرة أني مضطر إلى حكي ما جرى بعد كل هذا الوقت كانت كالعقاب. لكن طبعا كان من حق والديّ أن يعرفا ما مررت به. أنا نفسي كنت سأصاب بخيبة أمل إذا عاد والداي مصابين من الحرب ولم يرغبا في الكلام عن ما جرى. ومع ذلك لم يكن مزاجي يتحمل ذلك. وفوق هذا كله، ما كان أمر يشغلني حقًا سوى الأمور المتعلقة بإصاباتي. لكن لا أحد كان يتفهم أيًا من ذلك، وخصوصًا بابا، كلامه الفارغ كان يثير أعصابي.

كان قد تبرع في الحزب من أجل ضحايا الشعب في طريق عودته من المدرسة إلى المنزل. تبرعه هذا بث في نفسه شعورًا بالنشوى، ما جعله يرد عند أول تعليق مرير أبديته ويحدثني عن ضرورة الحرب وأثرها الإيجابي على المدى الطويل. شعرت بنفسي أنسحق أمام هذا القدر من انعدام البصيرة. تفاؤله كان يمكن احتماله على الجبهة، عندما كان يصلني في هيئة رسائل. لكن أن أضطر إلى سماعه شخصيًا فهذا أمر آخر تمامًا.

كنت أنسحب متى استطعت إلى غرفتي التي سكنتها وأنا طالب. لم تتغير الغرفة كثيرًا منذ تجنيدي بالخدمة العسكرية قبل ما يزيد عن خمس سنوات، ما زالت كتبي المدرسية على المكتب، تذكرني بالسنين التي لم يردها لي أحد. كان يمكن أن أحاول تعويض ما يمكن تعويضه، لكني استلقيت على السرير بلا حافز، قطعة من روح متآكلة. ظلت الفكرة تلح علي: الوقت الذي ضاع مني أكثر بكثير مما يمكن تعويضه.

ما كنت سأواجه أي مشاكل في دراستي بالمعهد التقني. ما كنت سأحتاج إلى وقت دراسي أكثر من الحد الأدنى الإلزامي. كنت سأصير الآن مستقلًا، واقفًا على قدمي، وكنت سأنفد بجلدي من وصاية أبي. / في روسيا، عندما كانت سحب الغبار تمر على الأرض وتغطيها، كثيرًا ما أكنت أقول لنفسي: ها هي أيامي ...

حتى جدران الشقة كانت توحي بأني لست على ما يرام، في صوري المعلقة في كل غرفة تقريبًا، صور تذكارية، كنت حاضرًا في كل مكان. الصور شاركت في الحياة الأسرية، أما أنا فشاركت في الحرب. أفسحوا لي مكانًا في أجمل موضع بغرفة المعيشة، بجوار بورتريه هيلده. ماما قالت إنها تريد أن ترى حَمَلها في كل مكان أينما ذهبت. وبابا كان رأيه أن نلبي لها رغبتها. / والآن هناك صورة لي أيضًا في المكتبة من زارلاند بعد الإصابة. حتى هنا استفاض بابا في وصف جمال اللقطة، لقطة لا غبار عليها حقًا.

ما فاجئني أن الهليون الذي زرعته هيلده لم يزل موجودًا. ماتت هيلده منذ سبع سنوات، وما زال هليونها يزهر. كما بقي جيتار هيلده مسنودًا على الحائط، طوال سبع سنوات، مخروسًا وعديم الجدوى مثلي. لا يوجد ما هو أكثر حزنًا من آلة ما عاد أحد يعزف عليها. / ما الذي كان يخطر ببال هيلده عندما كانت تعزف الجيتار في غرفة البنات؟ هل كانت محبطة؟ هل كانت خائفة؟ لا أطيق فكرة أني لن أعرف أبدًا! لماذا لم أسألها؟ ولماذا لم أقدر على مساعدتها؟ كان أحرى بي أن أسألها. / كل غرض صغير من أغراض هيلده يمزق قلبي، كل شيء كان ملكها وأصبح الآن كومًا بائسًا ومهملًا.

هيلده كان ينتظرها مستقبل واعد جدًا، ولحظات سعادة كثيرة، سواء مع الموسيقى أو مع كأس بيرة في أمسية دافئة بحديقة مطعم صغير. كانت تنازع حتى آخر لحظة تقريبًا لتحصل على أي شيء جميل من الحياة. أما أنا فأحدق في يديّ الخاويتين، أستلقي على سرير طفولتي الغائر، آسفًا على حالي، شاعرًا بالحسرة والأسى والخزي. كان يمكن لهيلده أن تحيا وكان يجب أن تموت. أما أنا، وقد سمح لي بالحياة، لا أعلم ماذا أنا بها فاعل. ما كانت هيلده لترضى عن هذه الحال. لكن كيف أغير من حالي؟ كيف أغير من نفسي ذاتها؟

تجولت في أنحاء البلدة، لم أشعر أن لي مكان بعد سنوات الغياب الطويلة. كانت محطة الترام القريبة من بيتنا خارج الخدمة بغرض توفير الكهرباء اللازمة للتوقف والانطلاق. بعض السائقين كان يخفف من السرعة عند المرور بالمحطة ليتمكن الركاب من النزول والركوب قفزًا. لكن ذلك كان مستحيلًا باستخدام العكازين. صعدت على الرصيف عارجًا. الزحام في الشوارع كان لا يطاق. لم يكن إيقاع المستشفى البطيء قد فارقني بعد، وشعرت كأني ضيف ثقيل.

كما كان الخروج مشكلة أيضًا لأن الرباط لا يبقى في مكانه أعلى ساقي حتى مع حرصي الشديد في الحركة. كان علي أن أشده باستمرار كيلا ينزلق مع المشي فيقع عند كاحلي. في آخر الأمر أعطتني ماما رباطًا للجوارب. شرحت لي كيف أرتديه. ثم ضحكت من قلبها، لم أرها تضحك هكذا منذ سنوات طويلة، بمنتهى الانطلاق. ثم قالت لي إنها تتمنى ألا أكون صرت مثليًا في الجيش، وإني علي أن أجد زوجة قريبًا. ومع ذلك جمع رباط الجوارب هذا بيننا، من عدة جوانب، وكنت ممتنًا لضحكة ماما.

خلال زيارات الأقارب كنت أخضع للتعذيب بالمخبوزات والكلام الرزين. كما قالت خالتي روزا: "إذا أبقيت رأسك مرفوعًا وفمك مفتوحًا عن آخره، سيجري كل شيء على ما يرام." ما زالت هي الأكثر تهذيبًا في عائلة أمي. كما كان علي أن أتحمل عمي رودلف لمدة ساعة من باب الأدب. حديثه عن شكوكه في أن تالر هيلي، ابن الجيران، يعبث برسائله أثار غضبي على نحو خاص. وبدلًا من أن أكيل لكمة لوجه عمي رودلف اكتفيت بقولي: "إن صح ذلك فلا لوم عليه." / كل من كان يتشدق بكلام كبير أو يأسف على حاله في فيينا كنت ارتاب في أمره، أو كلهم تقريبًا. لو كانوا يوزعون مالًا في مقابل اقتناء العبارات لأصبحت فيينا المدينة الذهبية: "لكل شيء نهاية، حتى الحروب." / "نعم، الحرب، إنها تقلق مضاجعهم." / "القائد سيد الموقف، كعادته دائمًا."

أهم زيارة قمت بها كانت لقيادة دائرة التجنيد وفق التعليمات. صدقوا على شهادتي الطبية، وسمحوا لي بإجازة مرضية لعدة أشهر، ورفضوا صرفي من الخدمة أو إعطائي موافقة بالتسجيل في ذلك الوقت لاستئناف الدراسة. كان رب العمل يفضل أن

يتمهل في قراره. فمن يلتحق به لا يُترك ليفلت هكذا بسهولة، لا تُقبل الاستقالات هنا. / ومع ذلك حملت لأمي في المنزل خبرًا سعيدًا. فقد كافئوني على إصابتي بمنحة من القائد تشمل مواد تموينية ونقود. وعلاوة على ذلك زجاجة نبيذ فوار. وكم كانت سعادة أمي بذلك، فالمنحة كانت تشمل بطاقات تساوي خمسة كيلوجرامات من الدقيق والبقول والدهن.

قبل عيد الميلاد بفترة قصيرة بدأ سقوط الثلج، وكان شديد الغزارة. وعن طريق الصدفة تحصلت من إحدى صديقات فالتراود، أختي الكبرى، على تسع وردات صفراوات في مقابل سبع عملات رايش مارك. توجهت إلى مقابر مايدلينجر لأزور هيلده. كان ثلجًا كثيفًا يغطيها، لم يكسح سوى عن الطرق الرئيسة. هناك، حيث أضاف بابا راية أخرى إلى بحر من الرايات في شهر مارس من عام 1938 وذرف دموعًا صادقة، دموع الفرحة: هناك وضعت الورادت التسع الصفر، وأشعلت مصباح المقبرة وأديت صلاتي. ما كان لدي أكثر من ذلك أقدمه لهيلده. أخذ الثلج ينهمر وينهمر. دائمًا ما كنت أتخيل أن هيلده هي الملاك الذي يحرسنا.

يقال إن السيدة هوله هي قائدة حشود الأرواح التي تغزو الأرض في الفترة ما بين عيد الميلاد ورأس السنة. في هذه الأيام تفتح أبواب عالم الموتى، ويعود الموتى إلى أماكنهم السابقة لمحاسبة الأحياء. / ثلج، ثلج، ثلج. وتحت الثلج ترقد أختي.

بعد يومين تحول الثلج إلى كومة مفتتة ذات لون بني فاتح وقد دهس وسحق تحت الأحذية والعربات. أحيانًا كانت الرياح تسقط بعض الندفات البيضاء من فوق الأسطح، فتنزل ببطء على العجائز والنساء والأطفال والكسح والجيش. الجيش كان يملأ الشوارع، ما زاد من فتور محبتي لفيينا حاليًا. ومع أني لم أعد مضطرًا إلى استخدام العكازين إلا أني أبقيت عليهما كيلا أطوح بذراعي عاليًا طوال الوقت. / حتى مانيكانات العرض في المحال صارت تتخذ وضعيات الجنود وصارت ممشوقة القوام، ويبدو أن ذلك الطراز قد نشط حركة البيع. إن كانت هناك بضائع للبيع.

ارتديت طاقيتي داخل المنزل أيضًا، وإن كانت مسحوبة إلى أسفل عنقي، إلا أني رأيت أن آلام الرأس ستخف هكذا. / المعطف رداء انتقالي، أما الطاقية فتصل بين العوالم.

في حديثي مع بابا كنت أمنع نفسي أحيانًا من إبداء ملاحظات تمنيت لو بحت بها. فقد كنت خاضعًا لرقابة شديدة الصرامة في مؤسسة لا يأتي فيها اللسان الطويل بالخير أبدًا. ولو كان بداخلي شيء من الحرية من قبل، فقد قضوا عليه تمامًا، كنت أعتبر كل ما هو حر أمر شخصي، وأنا ما عادت عندي أمور شخصية، منذ سنين. وأحاديثي مع بابا؟ لم تكن هذه أمور شخصية، الزمن لا يعود إلى الوراء. / بابا قال: "نعيش في عصر هام. ستحسدنا الأجيال القادمة لأننا كان لنا الشرف أن نشهد هذا العصر بأنفسنا." / أدركت فجأة أن هذه الأمور هي بالفعل موضوع حديث متكرر على الغداء. في لحظة نادرة الحدوث شعرت بارتياح ممزوج بالمرارة لأني كنت بعيدًا طوال خمس سنوات. ومع أني كنت عاهدت نفسي ألا أتحدث بالسياسة مرة أخرى كما كنت أفعل سابقًا، قلت لبابا إن سعادة هذا العصر التاريخي، الذي يبشر به أولاده منذ سنين، ذقتها بنفسي بما يكفي، وكفى الآن من هذا الجنون. لا أريد أن تكون لي علاقة بمستقبل يقوم على عصر كهذا، بغض النظر عن أن هذا المستقبل قد تبرأ مني على كل حال منذ زمن.

صدم بابا عندما أخمدت حماسته هكذا. في الصباح التالي ظل وجهه جامدًا بلا تعبير. وبعد أن أخذ رشفة أخيرة من قهوته قال أخيرًا إن من عايش الحرب السابقة وتبعاتها بوعي عليه التمسك بولائه، هذه المرة يجب ألا ننحرف عن المسار الصحيح. ونحن بالفعل على المسار الصحيح. / ثم أخذ يتحدث عن "جنودنا"، كل كلامه كان بغرض التقليل من الأهوال التي شهدتها كالعادة. أشارت ماما نحو النافذة. هناك كان عصفور من فصيلة الدغناش المعروفة بسذاجتها، جاثمًا بلا حراك على أصيص للزهور، فاتحًا صدره ناحيتنا. لم ينتبه بابا إليه، ولا إلى إشارات ماما. كانت تمسك بملعقة في يدها، واستمر بابا في حديثه.

لم تكن هناك جدوى من هذه الأحاديث، كانت مستنزفة وحسب. حتى بعيدًا عن خلافي مع والديّ كانت حصيلة العلاقات الإنسانية في حياتي كارثية. ولذلك لم أشأ أن يصل الأمر إلى مواجهة علنية. لكني فهمت أني في بيت أهلي عاجز عن أن أكون ذلك الشخص الذي أصبحته في أثناء غيابي. لقد بدلت بجنون الجبهة جنون العائلة.

عيد الميلاد كان على الأبواب. وأشجار عيد الميلاد كانت تضاف فقط على بطاقة تموين الأسر التي بها أطفال صغار. احتفلت مع والديّ بالعيد في سكون تام بتناول صحن من حلوى الأرز بالتفاح، وقد صارت هذه الطريقة المثلى للاحتفال بهذا العيد. سمعنا صفارة الإنذار أيضًا.

خلال العطلة وصلت بطاقة معايدة من عمي يوهان، الأخ الأكبر لبابا. كثيرًا ما بعثت له بعلب دخان من الجبهة، والآن يقول إنه حزين لأني لم أكتب له منذ فترة طويلة. كان عمي يوهان قائدًا في القوات المحلية في موندزيه. ذات مرة قال لي النقيب في المستشفى الحربي: "متى سنحت لك الفرصة، خذ حالك ومالك واذهب لتعيش في الريف." وقبل حتى أن أنتهي من قراءة البطاقة قررت أن أعمل بنصيحته: أسافر لأعيش في عالم أكثر سلامًا.